

قراءة عبد الإله بلقزيز لمشكلة التراث عند محمد عابد الجابري
Abdelilah Belkziz's reading of Mohamed Abed Al-Jabri's heritage problem

سدرا تي صبرينة*

قسم الفلسفة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة 2
 sabrinasedrati7@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/12/09

تاريخ القبول: 2024/10/28

ملخص:

إن سؤال التراث في الفكر العربي المعاصر، سؤال مركزي، جاء نتيجة الصدام مع الفكر الغربي، ما فرض إحياء الماضي، من هنا كانت العودة إلى الأصول ميكانيكياً نهضوا، عرفته اليقظة العربية الحديثة، كما عرفته جميع اليقظات النهضوية المماثلة التي عرفها التاريخ، لقد أصبح التراث مطلوباً ليس فقط من أجل الارتكاز عليه والقفز إلى المستقبل، بل وأيضاً تأكيداً للوجود وإثبات الذات، لقد ساهم في تأطير هذه العودة العديد من المفكرين في الفكر العربي المعاصر، نذكر من بينهم "محمد عابد الجابري" الذي طرح هذه الإشكالية من خلال مستويين، مستوى أول إيديولوجي، ومستوى ثاني معرفي، والمفكر عبد الإله بلقزيز يحاول أن يقدم قراءة معرفية للجابري من خلال مفهومه للتراث، محاولاً تحليل هذه الرؤية وتوسيع دائرتها في مجال الدراسات التراثية.

الكلمات المفتاحية: القراءة، التراث العربي، إيديولوجي، معرفي، العقل

العربي

Summary :

The question of heritage in contemporary Arab thought is a central one, arising from the collision with Western thought, necessitating a revival of the past. Thus, the return to roots became a revitalizing mechanism, recognized by modern Arab consciousness, as well as by all similar awakening movements in history. Heritage has become not only a requirement for anchoring and leaping into the future but also a confirmation of existence and self-affirmation. Many contemporary Arab thinkers have contributed to framing this return, among them Mohammed Abed al-Jabri, who addressed this issue on two levels: ideological and cognitive. The thinker Abdelilah Belkziz attempts to provide a cognitive reading of al-Jabri through his concept of heritage, seeking to analyze and expand its scope in the field of heritage studies.

Keywords:

Reading, Arab heritage, Ideological, Cognitive, Arab intellect.

* سدراتي صبرينة: sabrinasedrati7@gmail.com

مقدمة

أصبح المجال مفتوحا اليوم للعودة إلى تحليل الميكانيزمات التي يعتمدها العقل لفهم وتأويل مختلف القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات، واحدة من هذه القراءات والتحليلات في الفكر العربي المعاصر، قراءة المفكر المغربي عبد الإله بلقزيز لأعمال المفكر محمد عابد الجابري وأخص بالذكر "سؤال التراث في تأليفه".

لقد طارت شهرة الجابري في أفاق العالم العربي، خلال عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، لقد كان من المفكرين القلائل الذين استطاعوا التواصل مع المشرق العربي معتقدا بوجود تباين تام في التاريخ الفكري والثقافي لجناحي الوطن العربي الشرقي والغربي، كما قدم تحليلا معرفيا عن كيفية تبلور التراث الفكري للمسلمين الذي يعيشون في العالم الغربي، كاشفا عن الآليات الظاهرة والباطنة التي تحكم الروح والعقل الغربي.

من هنا تبدو الحاجة إلى ضرورة الرجوع إلى العقل كفعالية لمقاومة كل البديهيات، وكنظام تأويلي لمظاهر الواقع في مختلف تجلياته، ما يجعله ظاهرة كونية لها حضور بارز في جميع مجالات المعرفة. ومنه فالإشكالية التي طرحت نفسها في هذه القراءة تكمن فيما يلي: ألا يمكن إعادة النظر في التراث الإسلامي الذي أصبح في معظمه مذاهب وأنظمة مغلقة على مسلمات مقررة صريحة أو ملتبسة؟.

لا يخفى على الباحث المبتدئ، والمتخصص، أن الخوض في قراءة ونقد الإنتاج الفكري لمحمد عابد الجابري، طيلة العقود الثلاث المنصرمة من القرن الماضي، ليس من السهولة بما كان، ذلك أن جل أفكاره تعبر عن أنماط الأفكار والتحويلات التي عرفها ويعرفها الواقع العربي، ما يؤدي إلى صياغة مجموعة من الإشكاليات وطرح عدة أسئلة مرتبطة بمجالات الصراع الثقافي والسياسي في الحركة الفكرية العربية المعاصرة.

يبدأ المفكر عبد الإله بلقزيز قراءته للجابري باعتراف مهم، مؤكداً أنه مفكر متعدد الوجوه، لا يقبل قراءه بما هو متعدد. لقد تطرق الجابري من خلال إشكالية التراث إلى سؤالين: الأول، إيديولوجي، تناول أنماط العلاقة التي يقيمها الوعي العربي الإسلامي بالتراث، والثاني، معرفي، يتصل بالنظر في أهم الأدوات والمناهج التي تنتظم بها القراءة الموضوعية الشاملة للموروث. من هنا يحاول المفكر عبد الإله بلقزيز تحليل ونقد السؤالين الإيديولوجي والمعرفي في صلتهم بالتراث الإسلامي في فكر محمد عابد الجابري، سعياً منه لتأسيس رؤية نظرية مستقبلية أخرى توسع دائرة مجال الدراسات التراثية.

1. مفهوم التراث

أ. لغة

التراث حسب معجم المعاني هو الإرث، فمن ترك تراثاً ترك إرثاً ينتقل من جيل لآخر، ويقال وَرِثَ، يَرِثُ، وَرْثُهُ أو إِرْثاً أو ثِرَاثاً¹، ورد المصطلح في القرآن الكريم في سورة الفجر الآية 9 " وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا"، وتعني هنا التركة المادية.

من هنا فالتراث كلمة مشتقة حرفياً من الفعل وَرِثَ، يَرِثُ، مِيرَاثاً، وإِرْثاً وَثِرَاثاً وتفيد الكلمة كل ما انتقل إلينا من نصوص في مختلف الميادين من الآباء وأصبح ملكاً خاصاً بنا دون غيرنا من الأمم والشعوب الأخرى في مجالات الأدب والعلم والفقه والسياسة....

لكن الملاحظ أنه لا كلمة "تراث" ولا كلمة "ميراث"، ولا أياً من المشتقات من مادة (ورث) قد استعمل قديماً في معنى الموروث الثقافي -حسب ما نعلم- وهو المعنى الذي يعطى لكلمة تراث في خطابنا المعاصر²

ب. اصطلاحاً

التراث "Héritage" هو مجموعة الموروثات التي تم نقلها من الجيل السابق (الأجداد) إلى الجيل اللاحق (الأبناء)، منها موروثات مادية وأخرى معنوية كالعادات والتقاليد، به تتميز الشعوب عن بعضها البعض، وتحفظ كيائها من الضياع والتشرد وهو أنواع منه (الديني، الطبيعي، الثقافي، اللغوي، ..)³، فالتراث ظاهرة إنسانية نجدها في جميع المجتمعات، فلكل أمة تراثها.

غير أن كلمتي "Héritage" و"Patrimoine" لا تحملان المضامين نفسها التي نحملها نحن اليوم لكلمتنا العربية "التراث"، إن معناها لا يكاد يتعدى حدود المعنى الغربي القديم للكلمة والذي يحيل أساساً إلى تركة المالك لأبنائه، لقد استعملت كلمة "Héritage" بالفرنسية في معنى مجازي للدلالة على المعتقدات الخاصة بحضارة ما وبكيفية عامة التراث الروحي، لكن حتى في هذه الحالة يظل معنى الكلمة فقيراً جداً بالقياس إلى المعنى الذي تحمله كلمة تراث في الخطاب العربي المعاصر، إن الشحنة الوجدانية والمضمون الإيديولوجي المرافق لمفهوم "التراث" كما نتداوله اليوم، تخلو منهما تماماً مقابلات هذه الكلمة في اللغات الأدبية المعاصرة التي نتعامل معها.

فالتراث في نظر "محمد أركون" يمثل سنة الآباء، أي الأخلاق والتقاليد التي تؤمن بها الجماعة والأحكام والشرائع التي استنبطها الأئمة المجتهدون، والمعلومات العملية الشيعية التي يتوارثها الأفراد⁴.

من هنا فالتراث هو المعبر عن شخصية الأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فهو ليس مجرد ماضٍ أو تركة أو مستودع للأفكار والمعارف، بل هو مستوى من مستويات الوعي المعاصر.

2. وظائف التراث

قبل الشروع في تحليل هذه الوظائف لا بد من تحديد موقفين أساسيين مسبقين من التراث ذاته:

أ. موقف الممجد لهذا التراث (الموقف السلفي المحافظ).

ب. موقف الرفض للتراث المتحرر منه (الموقف الحدائي الليبرالي).

فأصحاب الموقف الأول يسعون إلى تأكيد فضائل التراث العربي التقليدي على أنه ليس مجرد إنجازات إنسانية عرضية في التاريخ العام وإنما هو روح في الحياة والتفكير ونمط مخصص من السلوك وربما كان خير نمط أبدعه الإنسان في التاريخ، أما أصحاب الموقف الثاني (الرافضون للتراث)، فهم يؤمنون مسبقا بعدم توقف طاقات الإنسان على العطاء والإنتاج في حقبة تاريخية محدّدة، بل يمكن إعادة تفجيرها بتجاوز كلي لمحتويات التراث القديم، وبناء نمط جديد للسلوك وحياة الإنسان وقيمه بتحريره من قيود القديم.⁵

لكن الملاحظ أن كلا الموقفين قد أخلا بالمفهوم الصحيح للتراث، فلا شك أن تمجيد أشكال الإبداع الثقافي الإنساني إلى حدود حقبة تاريخية محددة كما يميل إلى ذلك السلفيون المحافظون والمجدّدون لتراث الآباء والأجداد هو إفتقاره لحياة الإنسان المعاصر، من جهة ثانية إن نحن سلمنا مع الليبراليين الحدائين الرافضين للتراث، فلا يمكن أن يكون الإبداع منسلخا عن جذوره التاريخية وأصوله التراثية، ولذلك لا بد من النظر في مختلف وظائفه، منها إحياء التراث ومقارباته، كإحياء المخطوطات الدينية والنصوص الفكرية القديمة... كل ذلك من شأنه أن يعبر عن ثقافتنا العربية المعاصرة الصحيحة البعيدة عن الاقتباس من ثقافة الآخر الأوروبي.

من وظائف التراث كذلك إعادة قراءته، فهي من أكبر معضلات العصر الثقافي الحالي، حتى نجعل من تراثنا العربي أداة طيعة في أيدينا تستجيب بسهولة لحاجات عصرنا، وهي حاجيات عقلية مرتبطة بتطور مناهج النقد الفكري والفلسفي الحديث، كذلك تعددت مناهج قراءة التراث ومقارباته، منها قراءة سلفية أنثروبولوجية وثانية ماركسية ملتزمة، وثالثة لسانية تفكيكية.⁶

كل قراءة متميزة بمنهج صاحبها الخاص دون القراءات الأخرى –وتعتبر نفسها القراءة –الفصل- باقية دون غيرها في فهم مختلف جوانب التراث والقدرة على توظيف الجوانب المشرقة منه لصالح قضايا عصرنا الحالي.⁷

3. مشكلة التراث عند الجابري^{8*}

يعرف الجابري التراث في كتابه "نحن والتراث" قائلا: "التراث هو كل ما هو حاضر فينا معنا من الماضي سواء ماضينا أم ماضي غيرنا سواء القريب منه أم البعيد"⁹، من خلال هذا المفهوم يتضح جليا أن الجابري كان من أبرز الوجوه العلمية التي قدمت مقاربة جديدة في قراءة التراث العربي الإسلامي بمعايير جديدة تختلف عن القراءات السائدة والمعهودة عند أغلب الدارسين، فالتراث عنده اجتهاد وتفاعل الإنسان وتواصله المستمر تبعا للسياقات التاريخية والحضارية التي عاشها الإنسان وتفاعله معها حاضرا.

لقد إنبرى الجابري إلى تحليل التراث الفكري للعالم الإسلامي عبر قراءة نقدية مبنية على منهجية جديدة تقوم على تاريخية الفكر، من هنا يعد مفهوم العقل في منظومة الدراسات النقدية عنده عنصرا رئيسيا، فالعقل هو شبكة أو منظومة المبادئ والمفاهيم المتشكلة في إطار ثقافي معين مقارنا بين العقل اليوناني والعقل الغربي الجديد والعقل العربي محللا التفاوت بينها، ذلك أن العقل اليوناني تكوّن نتيجة للعلاقات والتحديات الاجتماعية، أما العقل الغربي يقوم على البحث والتقصي في الطبيعة، فيما يشكل النص قوام العقل العربي وبيانه، محكوم بالمقتضيات الطبيعية والتاريخية، وعلى هذا يستهل الجابري دراسته التاريخية النقدية بالتمييز بين ثلاث أنظمة هي: "البيان" و"العرفان" و"البرهان"، وفي كتابه "تكوين العقل العربي" "نقد العقل" يتحرى المنطلقات التاريخية لكل من هذه المنظومات.¹⁰

من هنا فالجابري حاول بناء فهم موضوعي للتراث، ذلك أن التصور الشائع للفكر الغربي في تطوره عبر التاريخ تصور لا يخضع للمنطق، لأن هذا

الفكر لم يعقلن ولم يتم تقديمه على أنه تاريخ، بل هو مجموعة من الأفكار والاتجاهات، يقول الجابري: "إن مقولات أرسطو ليست صورية منطقية محضة ولا لغوية نحوية محضة بل إنما تحمل مضمونا ميتافيزيقيا"¹¹، كذلك يرى أنه من الضروري تنظيم التراث في الوعي العربي من خلال إعادة ترتيبه في سياقه التاريخي، من هنا يعتبر الجابري أن أهم خطوة منهجية يجب القيام بها، تكمن في إحداث قطيعة مع الفهم التراثي للتراث، فكل فكر لا يمكن تحقيق استقلاله الذاتي يعتمد إلى تعويض هذا النقص عن طريق جعل موضوعات هذا الفكر تنوب عنه في الحكم على بعضها، فالفكر العربي الحديث والمعاصر "سليف النزعة والميول" لعل من أهم هذه السلفيات "السلفية الدينية" و"السلفية الاشتراكية" و"السلفية الماركسية"¹².

لقد سيطرت آلية قياس "الشاهد على الغائب" على العقل العربي، فصارت هي الفعل العقلي الوحيد الذي يعتمد عليه في الإنتاج المعرفي¹³، فأصبح كل مجهول بمثابة الغائب الذي نبحت عنه، وما على العقل إلا أن يبحث في الماضي كي يجد ما يقاس عليه الحاضر، فهذه الآلية قضت على الزمان والتطور وجعلت المستقبل امتدادا للحاضر والماضي، كما أدى ذلك إلى عدم الفصل بين الذات والموضوع، فأصبح الشاهد حاضرا في العقل والوجدان بشكل دائم.

لقد وظف الجابري مفهوم القطيعة الاستيمولوجية الذي يعود في تأسيسه إلى غاستون باشلار ليستعمله في مجال تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية باعتبارها "قراءة متوازنة للفلسفة اليونانية فهو لا يدعو إلى القطيعة بالمعنى اللغوي الشائع، بل يريد أن يتخلى ويقطع مع الفهم التراثي للتراث والقطيعة الاستيمولوجية تتعلق بالفعل العقلي كنشاط يتم وفقا لطريقة ما من خلال أدوات خاصة هي المفاهيم، في إطار حقل معرفي محدد، من هنا جاء إصرار الجابري على التحرر من "الرواسب التراثية" في فهم التراث، وأهم هذه

الرواسب هي نظرية "القياس" وتفكيك الكل من خلال فصل أجزائه في إطارها الزمني والمعرفي والإيديولوجي¹⁴، يقول الجابري في هذا الصدد: "يجب التحرر من القراءات السائدة واستئناف النظر في معطيات الثقافة العربية الإسلامية بمختلف فروعها، دون التقييد بوجهات النظر السائدة"¹⁵.

من هنا فالقراءة الموضوعية للتراث لا تكمن في عملية اختيار بين المنهج التاريخي أو البنيوي أو غيره، فكل منهج قد يصلح لميدان محدد، لكن كل المناهج الحديثة ليست صالحة إذا لم يتوفر لها موضوع منفصل عن التراث، لا يدخل في تكوينها، فالمشكلة الأساسية عنده تكمن في إيجاد الوسيلة التي تمكنه من فصل الذات عن الموضوع، وهي أهم ما يواجهه الفكر العربي المعاصر على صعيد المنهج، فالموضوعية ليست فقط المحافظة على عدم تدخل الذات في الموضوع بل الأمر أكثر تعقيدا لأن العلاقة القائمة بين الذات العربية بميولها ورغباتها تجبر الباحث أن يطرح المسألة على مقامين:

-هناك أولا: العلاقة التي تتجه من الذات إلى الموضوع حيث يتم فصل الموضوع عن الذات.

-هناك ثانيا: العلاقة التي تتجه من الموضوع إلى الذات حيث تفصل الذات عن الموضوع.

يشير الجابري أن تحقيق الموضوعية على المقام الأول شرط من أجل تحقيقها على المقام الثاني.¹⁶

كما تجدر الإشارة إلى الفرق الكبير بين من يفكر بتراث يمتد إلى الحاضر ويشكل كل الحاضر جزء منه، وبين من يفكر بتراث جامد منذ قرون، وفي الحالة الأولى نجد التراث يتجدد، إذ أنه موضوع يخضع للمراجعة النقدية بشكل مستمر أما في الحالة الثانية، فالتراث بعيد عن الحاضر تفصله عنه مسافة علمية شاسعة، لهذا يرى الجابري أن المكتسبات المنهجية التي قدمتها العلوم الألسنية بإمكانها أن تساعد في التعاطي الموضوعي مع النص، إنه يدعو

إلى التحرر من الفهم المبني على أسس تراثية ورغبات حاضرة من أجل التوصل إلى أمر ضروري يكمن في استخراج معنى النص من خلال التوقف على العلاقات بين أجزائه.¹⁷

لقد دعا الجابري إلى المزاوجة بين المعالجة البنيوية والتحليل التاريخي والطرح الإيديولوجي من أجل قراءة التراث قراءة موضوعية واعية، وفي هذا يقول الجابري: "إنه من الشروط الضرورية لنهضتنا تحديث فكرنا وتجديد أدوات تفكيرنا وصولاً إلى تشييد ثقافة عربية معاصرة وأصلية معاً، وتجديد الفكر لا يمكن أن يتم إلا من داخل الثقافة التي تنتمي إليها، فعندما يتعلق الأمر بفكر شعب أو أمة فإن عملية التجديد لا يمكن أن تكون إلا بالحفر داخل ثقافة هذه الأمة بالتعامل العقلاني النقدي مع ماضيها وحاضرها"¹⁸، فالمنهج الذي اتبعه الجابري في مشروعه نقد العقل العربي هو النقد الابدستيمولوجي، لقد وجه هذا المنهج أبحاثه في دراسته لتكوين العقل العربي وبنيته المعرفية، ومن ثم في دراسته العقل العلمي في بعده السياسي والأخلاقي. فالمعالجة البنيوية يقصد بها الانطلاق في دراسة التراث من التراث، كما هي معطاة لنا، إذ يقول: "يجب علينا وضع جميع أنواع الفهم السابقة لقضايا التراث بين قوسين والاقتصار على التعامل مع النصوص كمدونة"¹⁹.

أما التحليل التاريخي فيقصد به ربط فكر صاحب النص بمجاله التاريخي بكل أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية إذ يقول: "إن التوقف عند المكان التاريخي يجعلنا على بينة مما يمكن أن يتضمنه النص وما لا يمكن أن يتضمنه، وبالتالي يساعدنا على التعرف على ما كان في إمكانه أن يقوله ولكنه سكت عنه"²⁰.

وأخيراً الطرح الإيديولوجي الذي قصد به "الكشف عن الوظيفة الإيديولوجية الاجتماعية والسياسية الذي أداها الفكر المعين الذي ينتهي إليه"²¹.

3. موقف المفكر عبد الإله بلقزيز من مشكلة التراث عند الجابري

لقد اهتم المفكر المغربي عبد الإله بلقزيز بمناقشة مشكلة التراث في كتابه "نقد التراث" هذا العمل الموسوعي الضخم والمميز الذي أعطى نتاج أبرز المفكرين والكتل المعاصرين من ناقد التراث من فرح أنطون وجرجي زيدان وطله حسين إلى ناصيف نصار ومحمد عابد الجابري مروراً بعبد الرحمان بدوي وحسين مروة وكثيرون غيرهم.

حيث يقول في بداية هذا الكتاب "أتمم هذا الكتاب بقراءة عشرات المصادر من الكتب والدراسات التي ألّفت خلال ما يزيد عن مئة وعشرة أعوام في موضوع التراث والدراسات الإسلامية في نطاق الثقافة العربية (...)" ويعرف كل من لديه دراية بمجال الدراسات الإسلامية، ذلك أن الكم الهائل من الكتب التي وضفت في موضوع التراث لم تعتن في هذه الدراسة إلا بما كتب ضمن موقع خطاب الحداثة²²، وعن أسباب نقد التراث عنده يضيف قائلاً: "إن نقد التراث جزء من فاعليات الحداثة ومن تاريخها، ولعله الأهم في فاعليتها تلك، لأنه يطلعنا على معدل انفصالها عن منظومته وإقامتها منظومتها الخاصة"²³.

هذا ويقف عبد الإله بلقزيز في هذا الكتاب عند تناقضات بدوي عبر مسيرته الفكرية من الانهيار الأعمى بالغرب (...) إلى نزعة العداء الأقصى للغرب والتبجيل للشرق والإسلام وانتقاله من تبجيل المستشرقين والترجمة لهم إلى لعنهم والقدح فيهم دفاعاً عن الإسلام²⁴، وفي كتابه "نقد التراث" دافع المفكر المغربي عبد الإله بلقزيز عن أهمية التراث في حياة الأمم، وطالب بإحداث قطيعة مع النزعتين التبجيلية والاحتقارية له كما عارض استثماره سياسياً.

لقد كان التراث معركة بين فريقين ثقافيين: خطاب الأصالة وخطاب الحداثة، إذ كان لكل منهما تراثه الذي ارتضاه لنفسه، إن هذه المعركة التي عاشها الفكر العربي المعاصر ومازال يعيشها اليوم تحت عنوان قراءة التراث وفهمه وإعادة بناء معطياته في وعيننا المعاصر ليس في المحصلة أكثر من معركة

هادفة إلى الاستلاء على التراث، فلقد كان للتضخم الإيديولوجي أثره السلبي في ميدان الدراسات التراثية.

أ. التراث كسؤال إيديولوجي

يستهل المفكر عبد الإله بلقزيز** حديثه عن التراث ونقده مؤكداً أنه منذ سنوات الستينيات من القرن 20 على الأقل، بدأ الاهتمام الفكري بمسألة التراث يشهد انطلاقته، رغم أن الفكرة كان لها بدايات قبل ذلك بعهود أي منذ محمد عبده وفرح أنطوان حتى جيل الجابري وأركون وطه حسين، مصطفى عبد الرزاق، أحمد أمين، سامي النشار،... فمنذ ذلك التاريخ ونحن نشهد الطلب المتزايد على التراث من طرف النخب الثقافية أو الإسلامية، لكنه تحول من طلب جماعي إلى طلب يفيض عن حدود جمهوره الفكري التقليدي، فبتنا نعاين كيف يجري السباق على حلبة الدراسات التراثية بين التقليديين والحداثيين، وفي أوساط الآخرين (الغرب) بين الليبراليين والماركسيين والوجوديين... معركة فكرية محمومة تزج فيها النظريات والمناهج والمفاهيم الحديثة ويقارع فيها خصمه بكل ما أوتي من قوة

المعركة هذه في ظاهرها تبدو فكرية، معرفية لكنها في الحقيقة معركة إيديولوجية بين ألسنة وأقلام تنطق باسم فئات اجتماعية ومصالح مؤسسات جماعية (أهلية أو حزبية) غير أن الاستيلاء على مجال القراءة واحتلاله والاستحواذ على الرموز وإعادة تقديمها للجمهور، وإبطال مفاعيل قراءات مزاحمة أو منافسة أو الطعن في شرعيتها وأهليتها للنطق باسم رأي آخر ليست جميعها سوى تجليات مباشرة أو غير مباشرة لإرادة السيطرة على الحاضر، إن لم يكن الإستيلاء على الحاضر كله.

في هذا الوجه من وجوه العلاقة بالتراث- أعني وجهه الإيديولوجي- كان التراث مجرد موضوع للمعرفة والتحليل، بما هو مستودع معارف الماضين ليتحول إلى صراع إيديولوجي بين فرق متباينة المنطلقات والمصالح والأهداف،

وفي هذه المنافسة المحمومة تترسخ حقيقة مفادها أن التراث ليس مشكلة ماضي انصرم، وإنما مشكلة حاضر يعيد نتاج سلطات ذلك الماضي²⁵، إنه بعبارات الجابري سؤال الحداثة كلما اتخذ التراث هذا الشكل علاقة "النحن" بـ"التراث"، الحاضر بالماضي، فتصبح هذه العلاقات بعدما كانت علاقة بين ضدين مختلفين في الزمان (الأنا الجماعية/ التراث الماضي)، تصبح علاقة حدين متداخلين متحايين وهنا تسقط الفواصل والحدود والمسافات الزمنية فيبدوان معا متجاورين، فإذا كان التراث ينتمي إلى التفكير في الحاضر والمستقبل الذي ارتد زمانه.

يشدد الجابري على حضور هذا الوجه (الإيديولوجي) من وجوه سؤال التراث في الوعي العربي المعاصر، إذ يقول: "هل يمكن الإدعاء أن كل قراءة تصدر عنا نحن العرب المعاصرين، يمكن أن تكون متحررة من الهاجس الإيديولوجي؟ ألسنا نعبر في تصوراتنا للماضي عن حاجات في الحاضر وأن هذه الحاجات ليست إيديولوجية"²⁶.

يؤكد الجابري على ضرورة القراءة الإيديولوجية قائلا: "من الأفضل ألف مرة أن نحاول قراءة تراثنا قراءة إيديولوجية غير واعية، قراءة مزيفة مقلوبة"²⁷. غير أن السؤال الذي طرحه المفكر عبد الإله بلقزيز بما تتميز قراءة الجابري عن سواها من القراءات الإيديولوجية؟، يجيب المفكر على هذه السؤال موضحا أن هناك مهمتان رئيسيتان تتميز بهما هذه القراءة الجابرية المعترفة صراحة بما تكنه من مضمون إيديولوجي، تتمثل أولهما بنقديتها الحادة، وتتمثل ثانيهما بميلها الصريح إلى التخفيف من وطأة الإيديولوجي فيها من خلال رفع منسوب النظرة العلمية وإعمال مناهج ومفاهيم العلوم الإنسانية الحديثة والفكر الغربي الحديث، لقد اعتمد في تحليله لبنية العقل على المنهج البنيويين بالرغم من أن القراءة البنيوية لا تفيدنا كثيرا في التعرف

على آليات عمل هذا العقل، وكان عليه أن يبحث عن منهج آخر غير التفكيكية البنيوية لدراسة التراث والحداثة.

لقد قارع الجابري ثلاث قراءات أو مقاربات في جعل دراسات التراث في حقل تاريخ الفكر: القراءات السلفية والليبرالية والماركسية، ف"القراءة السلفية للتراث هي قراءة لا تاريخية فهي لا تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث هو الفهم التراثي للتراث، التراث يحتويها وهي لا تستطيع أن تحويه لأن التراث يكرر نفسه"²⁸، إنها قراءة إيديولوجية لأنها تنحاز إلى المعطى التراثي ولما كانت هذه القراءة صادرة من "منظور ديني" فلقد جعلت العامل الروحي المحرك الوحيد للتاريخ وعليه تشدد هذه القراءة على البعد الديني في التراث ولا تختلف القراءة الليبرالية للتراث عن سابقتها (السلفية) في نتائجها الإيديولوجية، وإن اختلفت في منطلقاتها ومناهجها.

إذ ينظر الليبرالي الغربي إلى التراث العربي الإسلامي بحسب الجابري من موضع حاضر يحياه هو (حاضر الغرب الموروثي) بذلك ينتج حوله قراءة أوروبية فهو لا يرى فيه إلا ما يراه الأوروبي.²⁹

فلما كانت قراءة الأوروبي لتراثنا محكومة بمسبقات إيديولوجية وبمنظرة أوروبية مركزية فإن قراءة العربي ستأتي محكومة بنفس الأحكام الإيديولوجية، وتنحو المقاربة الماركسية للتراث المنحى الإيديولوجي نفسه، فالماركسي لا يريد من علاقته بالتراث معرفته بالتراث بقدر ما يريد تسخيرها لخدمة الثورة والجدلية في وعيه، فمطلوب من الثورة أن تفيد بناء التراث ومطلوب من التراث أن يساهم على إنجاز الثورة من هنا يصبح التراث العربي الإسلامي انعكاسا للصراع الطبقي.

إن الجامع بين هذه القراءات الثلاث على اختلاف منطلقاتها ومناهجها هو هاجسها الإيديولوجي، وتوسلها طريقة في التفكير تقوم على قياس الغائب على الشاهد.³⁰

رغم هذه الصراعات الفكرية في هذه القراءة الجابرية للتراث إلا أن المفكر عبد الإله بلقزيز يؤكد أنه بالرغم من نقد الجابري لهؤلاء إلا أنه يبقى دوماً في قلب الإيديولوجيا معركة بين إيديولوجية التقدم وبين إيديولوجيا الانحطاط.

فمنسوب الإيديولوجيا أقل عند الرجل مما عند كثير ممن تناولوا مسألة التراث، لقد اختار لنفسه قراءة أخرى جديدة تقع خارج المعرفة، وهو التراث في وجهه الثاني وهو الوجه المعرفي.

ب. التراث كسؤال معرفي

يقترح الجابري قراءة جديدة للتراث، تحت عنوان نقد العقل، يطلق على هذه القراءة التحليل الإستيمولوجي للمعرفة التراثية وهو تحليل لا يهتم بالأفكار بل بالإرادة المنتجة لهذه الأفكار³¹.

غير أن المقاربة الإستيمولوجية للتراث التي اعتمدها الجابري فتحت أمام قراءته آفاقاً رحبة وقدمت تلك القراءة إمكانيات مفهومية مذهلة لتحليل نظام المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية، لقد أسس الجابري تلك القراءة على مبدأ الموضوعية، يقول الجابري: "مشكلة المنهج بالنسبة إلى موضوعنا ليس مشكلة اختيار بين منهج تاريخي وآخر وظيفي وثالث بنيوي. .. وقد يصلح أحد هذه المناهج في ميدان وقد لا يصلح في ميدان آخر، ولكنها جميعاً لا تصلح إلا عندما يكون الموضوع منفصلاً عن الذات..."³².

من خلال هذا القول يوضح المفكر عبد الإله بلقزيز أن الجابري يلج على مسألة الموضوعية التي يجب أن تكون في صميم البحث العلمي، لكن يبدو أننا أمام مادة يصعب وضع فواصل بينها وبين الذات التي تدرسها وهي التراث، بما يرمز إليه من قوة معنوية ذات سلطان في الوعي والوجدان، من هنا لا غرابة في الأمر إن عانى مجال دراسات التراث من نقص حاد في القيم العلمية ومنها مبدأ

الموضوعية بخاصة، فعلاقة القارئ به محكومة بالكثير من المسبقات المترسخة في الوعي منذ مراحل التكوين الأولى.

غير أن فصل الذات (القارئة) عن الموضوع المقروء، وإن كانت ضرورية فهي ليست كافية في نظر الجابري لتحقيق الموضوعية، إلا إذا تزامنت مع خطوة ثانية وهي فصل الموضوع عن الذات ما يسمح له هو الآخر باسترجاع شخصه وهويته وتاريخه معتمدا في ذلك على المنهج التاريخي من أجل فهم سياقه من المنطلقات التي حددها الجابري في دراسته للتراث "وحد الفكر وتاريخية الفكر"³³، فالأولى وحدة الفكر أو وحدة إشكالية أساسها التسليم بأن الفكر النظري "وحدة متميزة" تذوب فيها الاختلافات والفروق بين الأفكار والتيارات فقد تكون الموضوعات التي يتناولها المفكرون المنتمون إلى هذا الفكر واحدة وقد تكون مختلفة ومتباينة في النتائج وقد يعيشون في فترة زمنية واحدة، وقد تفصل بينهم سنوات... كل هذه الأوجه من الاتفاق والاختلاف لا تؤسس وحدة فكر إنما تؤسس فكريا في مرحلة تاريخية ما.

كما أن تعدد الآراء لا يعني بالضرورة تعدد للإشكاليات، فقد تختلف الأسئلة التي يطرحها المفكرون، بتعدد إجاباتهم عنها، كما قد يطرحون أسئلة نفسها ويقدمون أجوبة مختلفة³⁴.

أما ما سماه بتاريخية الفكر، وعنى بها المجال التاريخي الخاص بذلك الفكر، فالجابري في هذه المسألة يصدر عن رؤية تحكم بأن للفكر علاقة مباشرة بالواقع وهي علاقة لا تفهم إلا في ضوء التسليم بأن للفكر استقلالية نسبية عن الواقع يؤسسها الاختلاف القائم بين زمن الواقع وزمن الفكر.

من هنا يستنتج عبد الإله بلقزيز أن الجابري كان من الرواد المؤسسين للبحث العلمي في حقل التراث ومن المقارعين الكبار للإستسهال الإيديولوجي الذي طغى على زماننا الثقافي المعاصر وغمر مجال دراسات التراث كسؤال

معرفي هو عينه الانتقال من السؤال: لماذا الحاجة إلى قراءة التراث؟ أو كيف نقرأ التراث؟

فلا يجب أن نتخذ من التراث وسيلة لإنتاج خطاب إيديولوجي، فالمقاربة الإيديولوجية له تدخل المادة التراثية في مفاهيم لا تنتهي إليها وهذا ما حدث عن بعض الباحثين الماركسيين العرب، فالجبري تميز عن غيره من هؤلاء الباحثين بأمرين اثنين أولهما: أنه لم يسقط في نظرة انتقالية إلى التراث -وهذه سمة كل تفكير إيديولوجي- لقد تعامل معه في كليته كوحدة معرفية غير قابلة للتجزئة، وثانيهما أنه لم ينصرف إلى تحليل معرفة متوسلا بأدوات الاستمولوجيا ومفاهيمها ومكتسباتها المعرفية، هذه الاندفاعية الكبرى لهذه القراءة الجدية التي اقترحها تمثلت في مشروعه الفكري الكبير "مشروع نقد العقل العربي"، المشروع الذي ذهب إلى تحليل نظم المعرفة في الثقافة العربية الوسيطة ونقدها متجاوزا الحدود التي كان قد رسمها في مؤلفه "نحن والتراث"³⁵.

لقد اقترح مشروعاً جديداً كبديل يتمثل في تدشين عصر تدوين جديد يتعامل مع الواقع كما هو، موظفاً عملية التحليل والنقد من أجل تجاوز ما عبر عنه بـ"الأزمة الشاملة التي تطبع المرحلة الراهنة من تاريخنا، بالتالي تحقيق الاستقلال التاريخي للذات العربية، أي أن نمتلك تراثنا أن نحويه بدل أن يحوينا، أن نستقل عنه دون أن نشعر بنقصه، فيجب علينا أن نكون فاعلين غير مستهلكين، من هنا فعبد الإله بلقزيز يرى أن الجبري في نقده للخطاب العربي الحديث والمعاصر كان قاسياً وعنيفاً أما قضية التراث، فلنترك التراث مربوطاً بتاريخه بحيث لا يكون عبئاً علينا، ولا نكون عبئاً عليه.

بعد تعرض المفكر عبد الإله بلقزيز لتحليل مشكلة الذات عند الجبري، فإنه يرى أن ما قدمه هذا الأخير في مجال الدراسات التراثية لا يمكن لواحد منا إغفاله أو تناسيه إلا أنه من جانب آخر ساهم في إسقاط المفاهيم الحديثة على النص التراثي بحيث أصبح لا يتحمل ذلك، من ذلك أطروحته في القطيعة

الابستمولوجية بين الفلسفة المشرقية وفلسفة الغرب الإسلامي، فالحق الكثير من الأذى بفلسفة ابن سينا من دون مبرر مقنع، كما أسرف في الاستشهادات والاقتباسات إلى حدود تجاوزت المطلوب في الدراسات العلمية، من ذلك تجاهله لمساهمات باحثين عرب معاصرين عملوا في دراسة التراث من أمثال عبد الرحمان بدوي، ناصيف نصار،...³⁶، من هنا يدعو المفكر عبد الإله بلقزيز إلى ضرورة استبعاد النظرة العقائدية الواحدية إلى المنهج لمصلحة تعددية تكاملية ومقاربة موضوع التراث من زوايا مختلفة بإعمال مناهج مختلفة...

الخاتمة

من خلال هذه القراءة التي قدمها المفكر المغربي عبد الإله بلقزيز لفكرة التراث عند الجابري والتي شملت مستويين مختلفين، المستوى الإيديولوجي والمستوى المعرفي، نخلص إلى حكم مفاده أن قراءات التراث العربي الإسلامي كثيرة ومتنوعة منها هذه القراءة لعبد الأله بلقزيز التي حاول من خلالها توضيح الخطوط العريضة لمشكلة التراث عند الجابري ، فبالنسبة للجابري لا يمكن تحقيق نهضة عربية إسلامية معاصرة دون أن ننطلق من تراثنا العربي الإسلامي، فعلى أن نقرأ تراثنا بأدوات جديدة وب عقلية معاصرة بحيث ننطلق من تصورات بنيوية داخلية واستقراء لحثيات الموضوع، فقراءته كانت قراءة ثلاثية الأبعاد منهجيا تستند إلى ثلاث خطوات منهجية وهي الطرح البنيوي الداخلي، والطرح التاريخي، والطرح الإيديولوجي، وهنا يجتمع الجابري في هذا الطرح مع (بول ريكور) التي قرأ النصوص قراءة مقصدية من أجل الجمع بين الذات والموضوع، الداخل والخارج.

فما يهم الجابري هو النقد المعرفي لا النقد الإيديولوجي، فهناك إعلان عقليان تتحد من خلالهما علاقة المعرفي بالإيديولوجي، الفعل الأول يتمثل في قطع العلاقة مع منهج التراث من أجل فهم علمي.

أما المشروع العقلي الجديد فهو ذلك الذي يجعل الذات تحتوي التراث، كما كشف عنه مشروع ابن حزم، ابن رشد، ابن خلدون، .. هؤلاء انطلقوا من نقد ابستمولوجي لطريقة التفكير السائدة.

لقد انشغل الجابري أيضا بالتنظير لمشروع الوحدة العربية إذ وجد فيه أساسا صلبا للنهضة وتجميعا لمختلف القوى والثروات العربية، كي تصب كلها في مواجهة التخلف والتعصب والجهل وهذا لا يتم إلا بتصحيح الوعي بالوحدة من خلال البحث عن وضع الدولة الواقعية.

لقد شكل التراث العربي الإسلامي عائقا لكل من أركون والجابري في دخول معترك الحداثة، فالتعاطي مع التراث والنظريه والقياس عليه، واتخاذة مثلا وتقديسه إلى حد وضعه فوق التاريخ، كل ذلك هو في نظر مفكرينا قد أخذ وأعاق دخول الحداثة.

إن المستقبل سيظهر لنا مدى الاستجابة لمحاولة محمد عابد الجابري على إصابة الهدف، كما أنه سيبين ما إذا كان هناك من سبل أخرى، غير القراءة النقدية للتراث العربي الإسلامي، بإمكانها أن تحدث تغييرا في ذهن المواطن المسؤول، لكي يتم أخيرا التغيير المنشود.

فسؤال التراث عند عبد الإله بلقزيز هو سؤال الأنا العربية الإسلامية الباحثة عن منطقة توازن في محيط كوني متغير، مضطرب حافل بالتغيرات السياسية والثقافية، ما زاد من مساحته في المجتمع العربي في العقود الأخيرة، نتيجة إخفاق الثورات العربية المعاصرة في الإجابة عن الأسئلة المعضلة.

قائمة المصادر والمراجع:

. الكتب:

- حبيب الله باباني ورضا خراساني، الحضارة والحداثة في الفكر العربي المعاصر، بيروت، ط1، 2014
- طيب تيزيني، من التراث إلى الثورة، دار النشر ابن مندوب، ج1، 1978.
- عبد الإله بلقزيز: نقد التراث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2008
- فؤاد سركيس، التراث العربي، جامعة الإمام محمد بن سعود، 2006
- في العقل ونقد العقل، قراءات في أعمال المفكر محمد عابد الجابري، جامعة الحسن الثاني، ط1، 2001
- محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، ط2، مركز الإنماء القومي العربي، بيروت.
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة نقد العقل العربي، بيروت، 1994
- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، 1985
- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط6، 1993.
- محمد عابد الجابري، التراث ومشكل المنهج، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1986.
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، 1991.
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط10، 2009.
- محمد عابد الجابري: التراث والحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991

- محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.
- معجم المعاني، المعجم الجامع، تأليف سرطون عطية، دار عنيا للنشر والتوزيع
- مهدي فاضل، أزمة الحضارة العربية أم أزمة البورجوازيات العربية، بيروت، دار الفارابي، 1976
- نائلة أبي نادر، التراث والمنهج بين أركون والجابري، الشركة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2008
- *Noëlla Baraquin, Anne Baudart: Dictionnaire de la philosophie, Armand Colin, 2014*
- مواقع الانترنت:
- <https://ar.m.wikipedia.org/wiki/Le01/11/2022.10:00h>
- <https://ar.m.wikipedia.org/wiki/Le:01/11/2022.10:00>

هوامش الدراسة:

- ¹ معجم المعاني: المعجم الجامع، تأليف سرطون عطية، دار عنيا للنشر والتوزيع، ص45.
- ² أنظر: محمد عابد الجابري، التراث ومشكل المنهج، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص ص73-74.
- ³ فؤاد سرقيس: التراث العربي، جامعة الإمام محمد بن سعود، 2006، ص21.
- ⁴ محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، ط2، مركز الإنماء القومي العربي، بيروت، ص211.
- ⁵ محمد عمارة، نظرة جديدة إلى التراث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979، ص53.
- ⁶ طيب تيزيني، من التراث إلى الثورة، دار النشر ابن مندوب، ج1، 1978، ص126.
- ⁷ محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، 1991، ص51.

- * محمد عابد الجابري: مفكر مغربي (1935-2010) أصدر حوالي 30 مؤلفاً في قضايا الفكر المعاصر، أبرزها "نقد العقل العربي" الذي تمت ترجمته إلى عدة لغات، على جانب مؤلفات أخرى "نقد العقل العربي"، "نحن والتراث"، "إشكاليات العقل العربي المعاصر...".
<https://ar.m.wikipedia.org/wiki/Le01/11/2022.10:00h>
- ⁹ محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط6، 1993، ص20.
- ¹⁰ حبيب الله باباني ورضا خراساني: الحضارة والحداثة في الفكر العربي المعاصر، بيروت، ط1، 2014.
- ¹¹ محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ص51.
- ¹² نائلة أبي نادر: التراث والمنهج بين أركون والجابري، الشركة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2008، ص243.
- ¹³ محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، مرجع سابق، ص18.
- ¹⁴ محمد عابد الجابري: التراث والحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص262.
- ¹⁵ محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط10، 2009، ص5.
- ¹⁶ الجابري: نحن والتراث، مرجع سابق، ص22.
- ¹⁷ المرجع نفسه، ص23.
- ¹⁸ محمد عابد الجابري: التراث والحداثة دراسات ومناقشات، ص33.
- ¹⁹ محمد عابد الجابري: نحن والتراث، ص24.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص24.
- ²¹ المرجع نفسه، ص24.
- ²² عبد الإله بلقزيز: نقد التراث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 2008، ص15.
- ²³ المصدر نفسه، ص16.

²⁴ المصدر نفسه، ص115.

^{**} عبد الإله بلقزيز: مفكر مغربي معاصر، حاصل على شهادة دكتوراه الفلسفة من جامعة محمد الخامس، يشغل منصب أمين عام المنتدى المغربي في الرباط، نشر عدة كتب ومقالات أهمها: نقد التراث، المواطنة...، كان مدير دراسات الوحدة العربية، بيروت.

انظر: <https://ar.m.wikipedia.org>. Le :01/11/2022.10:00

²⁵ مهدي فاضل: أزمة الحضارة العربية أم أزمة البورجوازيات العربية، بيروت، دار الفارابي، 1976، ص15.

²⁶ الجابري: نحن والتراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، 1985، ص12.

²⁷ المرجع نفسه، ص12

²⁸ المرجع نفسه، ص17.

²⁹ المرجع نفسه، ص18

³⁰ المرجع نفسه، ص ص20-21.

³¹ الجابري: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة نقد العقل العربي، بيروت، 1994، ص23.

³² الجابري: نحن والتراث، ص27.

³³ المرجع نفسه، ص31.

³⁴ المرجع نفسه، ص33.

³⁵ في العقل ونقد العقل، قراءات في أعمال المفكر محمد عابد الجابري، جامعة الحسن الثاني، ط1، 2001، ص31.

³⁶ عبد الإله بلقزيز، نقد التراث، ص115.